

القضايا الأساسية

مصادر الكتب والمكتبات الوقفية

مرت الكتب والمكتبات الوقفية بمرحلتين الأولى منها يمكن أن نطلق عليها:

أ - مرحلة الانقراض :

وهي التي شهدت تدهور أوضاع المكتبات بتخريبها وتدميرها والسطو عليها وسوء إدارتها والتفريط في تحمل أمانتها.

ففي هذه المرحلة واجهت أغلب الكتب والمكتبات الوقفية مصيراً مؤلماً ينم عن جحود ونكران المجتمعات التي قامت فيها، ذلك لأن أغلب ما حل بها من تفريط مصدره أفراد أو جماعات استفادت هي أو استفاد أسلافها من محتوياتها إضافة إلى أن بعضها نكب من جراء الغزو الخارجي أو بفعل الكوارث الطبيعية، خاصة الحرائق.

ولو حاولنا تصنيف الأسباب التي تولدت عنها الإساءة والتدمير اللتين حلتا بهذا النمط الثقافي الذي كان يقوم على الذاتية المحبة للآخرين، المشبعة بروح الفضل والرغبة في إقامة مجتمع راق يعم فيه العلم وتشع أنوار الثقافة، فسنعدها تتمثل في التالي:

١ - الفتن والقتال والتغيرات السياسية :

ولعلها كانت أكبر عنصر شر استغل في القضاء على البنية الثقافية العربية، وعلى رأسها تدمير المكتبات فكان النهب والسلب والسرقة والحرق من الطرق التي كان المشاركون في الفتن أو عامة الناس من الجهلاء يلجأون إليها في التعامل مع الكتب والمكتبات.

فمكتبة سابور بن أردشير التي عرفت بدار العلم، والتي قامت بدور ثقافي

جليل على مدى سبعين عاماً، أحرقت عند مجيء طغرلبيك إلى بغداد، ورغم أن الأخبار التي رويت عن حريقها لا تشير إلى أنه كان عملاً مقصوداً، إلا أننا نشعر من صيغة الخبر كما أورده ابن الأثير بأن بغداد في اليوم الذي شب فيه الحريق بدار العلم كانت قد تعرضت لأعمال تخريبية استخدم فيها الحريق كنوع من الإرهاب والانتقام، وهناك خلاف في السنة التي وقع فيها هذا الحدث المفجع فابن الجوزي يجعله ضمن حوادث سنة ٤٥٠هـ بينما جعله ابن الأثير ضمن حوادث سنة ٤٥١هـ، وقد يكون الخلاف نتيجة وقوعه في نهاية عام ٤٥٠هـ أو بداية ٤٥١هـ.

ويشعرنا نص ابن الجوزي بالعمد في إحراقها إذ يقول: «واحرقت عند مجيء طغرلبيك في سنة خمسين وأربعمائة»^(١) أما نص ابن الأثير فيعبر عن الحدث بصيغة تشعر بأن ما وقع كان قضاء وقدرًا في جزء منه، بينما يوحى بأن الأمر كان في معرض فتنة حادثة لم يستطع الحاكم خلالها السيطرة على الأمور، وهذا هو نص ما ذكره :

في هذه السنة احترقت بغداد: الكرخ وغيره وبين السوريين واحترقت فيه خزانة الكتب التي وقفها أردشير الوزير ونهبت بعض كتبها، وجاء عميد الدولة الكندري فاختر من الكتب خيرها، وكان بها عشرة آلاف مجلد وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم فيها مائة مصحف بخطوط بني مقله، وكانت العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق فأزالهم عميد الملك، وقعد يختارها، فنسب ذلك إلى سوء سيرته وفساد اختياره وشتان بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمر المدارس... ووقف الكتب وغيرها^(٢).

ومن هنا فإن خزانة سابور أو دار العلم كما نستخلص من رواية ابن الأثير تعرضت للحريق والنهب، وسوء القصد والتعمد في تخريبها، نشعر به من خلال ما قام به عميد الملك الكندري الذي قد يكون من المتسببين في ذلك العمل الاجرامي فهو لم يلجأ إلى إخماد الحريق، ولكنه أبعد العامة، وجلس يختار لنفسه ما يشاء من الكتب التي سلمت من الحريق.

وما حل بدار العلم في بغداد، وقع لخزانة الكتب في حلب في حدود سنة ٤٦٠هـ أي بعد عشرة أعوام تقريباً، فقد دفع الصلف والجهل وحب الانتقام الخلفية الفاطمي المستنصر إلى إحراقها، أما السبب فقد ربطه الذهبي بمصنف لأبي الحسين الحلبي ثابت بن أسلم وكان من فقهاء الشيعة ألف كتاباً كشف فيه عوار الاسماعيلية وبدء دعوتهم، فحمل إلى مصر وصلبه المستنصر «وأحرقت لذلك خزانة الكتب بحلب وكان فيها عشرة آلاف مجلدة»^(٣).

وبعد أكثر من عشرين سنة من حريق خزانة الكتب في حلب، أحرقت دار الكتب في البصرة التي وصفت بأنها «لم ير في الإسلام مثلها» ذلك أثناء فتنة قادها رجل يقال له بلياً استطاع أن يغوى خلقاً من أهل البصرة عندما زعم أنه المهدي في عام ٤٨٣هـ^(٤).

وهكذا نجد أنه ما بين ٤٥١ حتى ٤٨٣ هجرية أحرقت ثلاث مكتبات كبرى بسبب أحداث سياسية وفتن تخريبية، وإذا كنا قد عرفنا مجموع ما كان في مكتبتي حلب وبغداد، فإن الإشارة إلى مكتبة البصرة بأنها كانت تضم مجموعة وافية لم ير في الإسلام مثلها، قد يدفع إلى جعل متوسط ما كانت تضمه هو عشرة آلاف مجلد أيضاً، وبالتالي فإن أكثر من ثلاثين ألف مجلد من نفائس الكتب وذخائرها مما كان قد جعل لعامة الناس في دور الكتب التي أسست لرفع المستوى الثقافي قد دمرت، وبالتالي حرم القارئ الفرد من مصدر فكري هام كان يلجأ إليه.

وأحرقت جحافل التار والمغول عندما اكتسحت الأراضي الإسلامية مكتبات كان من بينها مكتبة ساوه، التي يقول ياقوت بأنه في سنة ٦١٧هـ كان مما عملوه من تخريب وتدمير احراقهم لتلك المكتبة التي يصفها بأنه لم يكن في الدنيا أعظم منها^(٥).

وإذا كان الحرق هو المصير الذي واجهته تلك المكتبات، فإن مكتبة القصر التي قد يقصد بها دار الحكمة التي أسسها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في القاهرة: واجهت مصيراً أقل قسوة وإن كان مصيراً سيئاً أيضاً، فبعد استيلاء صلاح الدين الأيوبي على مصر، كان مما عمله أن مكن بعض أفراد حاشيته من

الاستيلاء على نفائس كتبها، فأعطى القاضي الفاضل «من الكتب ما أراد» وعرض بعضها للبيع فقد أشار البنداري إلى جانب من المصير المؤلم الذي آلت إليه تلك المكتبة عندما قال:

كان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان وهي تباع بالمجان وبأرخص الأثمان.. فليل للأمر بهاء الدين قرقوش متولى القصر والحال والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العث وتساوي سمينها والغث ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها، وهو تركي لا خبرة له بالكتب ولم يدر أن في نفضها انفضاضها وأن في تصحيحها امراضها.. وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها فأخرجت، وهي أكثر من مائة ألف من أماكنها وغربت من مساكنها... وكان فيها من كتب الأمصار والتواريخ الكبار ما يشمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلداً، إذا فقد منها جزء لا يخلف أبداً فاختلطت واختلطت فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتباً مبتسرة فتسام بالدون وتباع بالهون، والدلال يعرف كل شدة وما فيها من عدة، ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها حتى إذا لفق كتاباً قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة...^(١).

ويقال إن بيع محتويات القصور الفاطمية استمر عشر سنوات ولعل الأمر شمل ما احتوته المكتبة أيضاً، والتي قيل إنها كانت تضم مليون وستمائة ألف كتاب، وهو رقم مبالغ فيه بالطبع، والأقرب إلى الواقع ما قيل من أن محتوياتها كانت تتراوح ما بين مائة ألف ومائة وعشرين ألف مجلد، وقد أخذ منها صلاح الدين ما حملة على ثمانية جمال إلى الشام^(٢).

وهكذا تبدد تراث هام حفظ في تلك المكتبة وتشتت ببداء، يباع على تجار الكتب، وعطاء لبعض العلماء، إضافة إلى ما أخذه صلاح الدين لنفسه، وهذا الموقف يستغرب من صلاح الدين الذي عرف بجهاده ومواقفه المشهودة في الذود عن حياض الإسلام، ولكن يبدو أنه وقع تحت تأثير مستشارين لم يحسنوا إسداء النصيح له فكان ما كان.

ونهب مكتبة الصالحية في غزوة قازان للشام وضاع الكثير من محتوياتها^(٨).

وخلال الحكم المغولي للعراق بعد سقوط الخلافة العباسية قدم نصير الدين الطوسي إلى بغداد مبعوثاً من هولاكو «فنظر في الأوقاف وأحوال البلد، وأخذ كتباً كثيرة من سائر المدارس وحولها إلى رصده الذي بناه بمراعة»^(٩)؛ وبالتالي كون مكتبة ضخمة اشتهرت فيما بعد، لعل أغلب ما ضمته جاء من تلك الكتب التي نهبها من بغداد بأمر المغولي هولاكو.

وتسبب الخلاف السياسي وحب الانتقام والوشاية في إقدام السلطان الناصر فرج على هدم المدرسة الجمالية، ونظر في كتبها الوقفية فأقر منها كتباً كتب عليها ما ينص على وقفه لها «وحمل كثيراً من كتبها إلى القلعة ..»^(١٠).

وإدى الصراع بين الحفصيين في تونس والقوى الصليبية الغازية في الأضرار بخزانة الكتب الوقفية في جامع الزيتونة، حيث لم يبق منها شيء بل تلاشت حتى قيل إن المار من شرقي الجامع... إنما يمر على الكتب المطروحة هناك^(١١).

وعقب الفتح العثماني لمصر.. سطا الوزراء على كتب المدارس مثل المحمودية والمؤيدية والصرغتمشية «ونقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها ولم يعرفوا الحرام من الحلال في ذلك»^(١٢).

كما نهب العثمانيون خلال حكمهم للحجاز الكثير من الكتب التي كانت في المكتبات الوقفية، وعندما تسلط العجم على بغداد قبل العثمانيين امتدت أيدي العبث والخراب إلى كنوز خزانة الكتب التي كانت في جامع الامام أبي حنيفة في بغداد، التي تعتبر من أقدم مكتبات المساجد والتي وقف فيها الطبيب ابن جزله المتوفى سنة ٤٩٣ بعض كتبه^(١٣).

٢ - استغلال الكتب الموقوفة ونهبها من قبل بعض العلماء.

والمؤسف في الأمر أن بعض رجال العلم قد ساهموا في تدمير بنية المكتبة العربية التي شيّدت على الوقف العام، ونهبوا نفائسها للاستثمار بها لأنفسهم وحجبها عن عامة القراء.

ومن هؤلاء عمر بن علي بن أحمد السراج الأنصاري الأندلسي التكروري المشهور بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤هـ فقد كان عنده من الكتب «مالا يدخل تحت الحصر، منها ما هو ملكه، ومنها ما هو من أوقاف المدارس»، «لاسيما الفاضلية»^(١٤).

ولم يتورع صالح بن عمر الكنانى العسقلاني البلقيني القاهري المتوفى سنة ٨٤٨هـ والذي وصف بأنه كان عالماً فاضلاً درس في مدارس كثيرة بالقاهرة، من المشاركة في نهب كتب الأوقاف، فرغم وصفه بالفضل وعلو المكانة إلا أنه خلف بعد موته «دنيا طائلة وكتباً جمّة من جملتها من أوقاف المدارس ونحوها ما يزيد على ألف مجلد»^(١٥).

ومن أسوأ تلك النماذج المستغلة القاضي محب الدين أبو الفضل محمد بن محمد الشهاب ابن الشحنة الحنفي المتوفى سنة ٨٩٠هـ والذي وصفه السخاوي بأنه كان مستغلاً لمنصبه في القضاء.

حتى أنه استنزل الشهاب ابن العيني من تصوف كان باسمه في الأشرفية الجديدة، والبدرى بن عبيد الله من الاعادة بالصرغتمشية لولده الصغير.. وزوج ابنه الصغير لابنة العضدي شيخ الظاهرية ليتوصل بالتزويج والتصوف والنزول إلى أخذ المشيخة بكل من الأماكن الثلاثة المعينة... وأكثر من تسليط ابن عبيدالله على خازن المحمودية حافظ الدين ابن الجلالى لينزل له عنها فما سمح فصار يناكده ويتمقته بما ضعف الخازن عن حمله ولا سيما وهو نائبه في القضاء، ولم يسعفه إلا أن عزل نفسه عن النيابة، هذا مع أنه حمل له من كتبها ما ينيف على مائة مجلد^(١٥).

كما ذكر في مكان آخر وهو يترجم له بأنه كان: «عظيم العناية في تحصيل كتب العلوم بحيث اجتمع عنده من نفائس كل فن ما قل أن يجتمع لغيره وربما اغتصبها ممن هي عنده... ونسب إليه أخذ تفسير الفخر الرازي وهو في مجلد من أوقاف المؤيدية وجحده...»^(١٧).

ولم يختلف سلوك قاضي القضاة بالديار المصرية أحمد بن بدر الدين بن شعبان

عن سلوك ابن الشحنة فقد ذكر أنه كانت عنده من الكتب النفيسة ما ينوف على أربعين ألف مجلد.

وأكثرها من كتب الأوقاف وضع يده عليها، ومنع أهل العلم من النظر إليها، وطالت الأيام ومضى عليها أعوام ونسيت عنده وغير شروطها، ومما يستدل به من كونها وقفاً من أوائلها وأواخرها، وزاد ونقص، وصارت كلها ملكاً له في الظاهر ولم يخف الله ولا اليوم الآخر^(١٨).

وشارك جملة من العلماء في السطو على أوقاف المدرسة الضيائية التي كانت تحفل بنفائس لا نظير لها، فالقاضي علاء الدين بن مغلى عندما احتاج إلى كتاب الخلاف لأبي يعلى، قيل له إنه لا يوجد إلا في الضيائية فأرسل في طلبه فقام خازن المكتبة ناصر الدين بن زريق الذي يذكر ابن حجر بأنه ما رأى في بلاد الشام من يستحق اسم الحافظ غيره، فجمع مجلداته في قفتين وأرسله له، ومن ثم انفرط أمر المكتبة وطمع الناس فيها.

ثم لما جاء تمر وذهب، زاد انفراط حالها، فجاء ابن حجر وأخذ منها عدة أحمال.

ثم جاء الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين فأخذ منها ثم جاء قطب الدين الخيصرى فأخذ.

ثم أن القاضي ناصر الدين بن زريق الثاني استوعب أحاسن ما فيها^(١٩).

وشارك الفقهاء في تفويض بنية المكتبة الفاضلية، فساهموا في نكبتها عندما تداولت أيديهم عليها بالعارية حتى تفرقت^(٢٠).

ويعجب المرء حقيقة من هذا السلوك الأناني الذي سلكه أمثال أولئك العلماء والحفاظ والقضاة، وكيف أنهم ساعدوا على تفويض أهم ركن من أركان الثقافة العربية قام على الوقف بهدف إشاعة العلم وتمكين كافة الأفراد من الاستفادة منه، فوضعوا أنفسهم بذلك في خندق واحد مع الغزاة وجهلة الناس الذين كانوا يستغلون تضعف الأمن لينقضوا على دور الكتب لنهبها وسلبها وإحراقها وبالتالي حرمان جماهير عريضة من المستفيدين من ذخائرها ونفائسها.

٣ - تفريط المشرفين على المكتبات وسوء إدارتهم :

وكان لبعض المشرفين على المكتبات والكتب الوقفية دور مباشر في خلخلة بنيتها والإساءة إلى هدفها السامي، وذلك عن طريق التهاون في أداء الرسالة الموكلة إليهم، أو المشاركة في استغلال محتوياتها عن طريق تسهيل سطوها ونهبها أو إعارتها دون ضمان لبعض المتنفذين رغبة في الوصول إلى أغراض دنيوية عن طريقهم.

وقد مر بنا من قبل ما وقع من خازني المحمودية السراج عمر، والفخر عثمان إذ أساء الأول، وعندما اكتشف أمره عزل، وعقبه جاء الثاني وكان منضبطاً، ولكنه كان مجاملاً فيما يبدو ففقد من المكتبة أثناء إشرافه عليها ما يقرب من أربعمئة مجلد، فعزل أيضاً وغرم قيمة المفقود من الكتب^(٢١).

ووصف محمد بن عمر بن عبدالله بن محمد بن غازي المتوفى سنة ٨٤٥هـ والذي عمل خازنا في إحدى المكتبات المدرسية عن طريق التقرب من الشرفي يحيى العطار بأنه كان «خفيف ذات اليد»^(٢٢) وهو ما يعني: بأنه قد أساء التصرف في محتويات تلك المكتبة.

ومن الكتب الوقفية التي تعرضت للنهب مجموعة أبي اليمن الكندي، وكان عددها سبعمائة وأحدى وستون مجلداً، وقفها على معتقه نجيب الدين ياقوت ثم على العلماء في الحديث والفقه واللغة وغير ذلك، وجعلها في خزانة كبيرة في مقصورة ابن سنان بالجامع الأموي.. «ثم أن هذه الكتب تفرقت وبيع كثير منها ولم يبق بالخزانة المشار إليها إلا القليل الرث»^(٢٣).

وأدى سوء الوضع الإداري في مكتبة المدرسة الفاضلية، إضافة إلى الظروف الإقتصادية الصعبة التي مرت بمصر في عام ٦٩٤ هجرية، إلى قيام الطلبة بسرقة كتبها «فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب»^(٢٤).

وتعرضت مكتبة المدرسة الشهابية لظروف سيئة فيما يبدو مما اضطر القاضي إلى الاحلال بشرط الواقف الذي اشترط أن تكون في خزانة أمام بيته، إذ أنه عندما خيف عليها، أمر بحملها ووضعها في خزانة أخرى في بيت على باب المدرسة

وقد أورد الخبير ابن فرحون وختمه بما يشعر بسوء الحال إذ قال: «أصلح الله أمرها ورد إليها حالها»^(٢٥).

وفرط الملك الصالح المنصور حاجي ابن الأشرف شعبان في الكتب التي وقفها والده على المدرسة التي أسسها، فباعها على جمال الدين الاستادار بمبلغ ستمائة دينار، رغم أنها جميعها كانت تضم في أولها الإسهاد على الملك الأشرف بوقفها في مدرسته، ولعل من حسن الطالع أن هذه الكتب وقفت من جديد بالمدرسة التي أسسها الاستادار الذي «كان حفيها بها»^(٢٦).

وكان ابراهيم بن عمر بن موسى صارم الدين النابتي صاحب الحديدية المتوفى سنة ٨٧٦هـ قد اقتنى كتباً كثيرة ووقفها بعد موته.. ولكن زوج ابنته المقبول بن أبي بكر الزيلعي، استولى عليها وحملها إلى قريته اللحية ووضعها في خزانه، ولم يمكن أحداً من الإستفادة منها^(٢٧)، فأقدم على جرمين بصنيعه المقيت الذي يدل على ذناء وسوء قصد وبعد عن حب الخير.

وأبت سيدة فاضلة تنامي في داخلها حس اجتماعي رفيع إلا أن تسهم في العمل على رفع المستوى الثقافي والعلمي في منطقتها، فكان أن وقفت كتبها على طلبة العلم، وتلكم هي السيدة فاطمة بنت حمد الفضيلي الحنبلي الزبيرية التي كانت تعرف بالشيخة الفضلية، والتي توفت في عام ١٢٤٧، ومما يذكر أنها.

كتبت كتباً كثيرة في فنون شتى، وخطها حسن، وصار لها همة في جمع الكتب فجمعت كتباً جليلاً في سائر الفنون، ووقفت كتبها جميعها على طلبة العلم من الحنابلة، وجعلت الناظر عليها بلديها التقى الصالح شيخنا الشيخ محمد الهديي فكانت عنده إلى أن أراد النقلة إلى المدينة فتورع عن اخراجها من مكة فجعلها عند خادمته شائعة بنت النجار وأولادها، ثم أرادت التحول إلى المدينة أيضاً فأشرت عليها بأن تبقئها في مكة كما فعل شيخنا فغلب عليها أولادها، وقالوا أن الشيخة الواقفة لم تشتترط ذلك، وذهبوا بها معهم، فتوفاهم الله تعالى وذهبت شذر مذر إلا أقلها كان عندي فأبيت اخراجه من مكة فبقى والحمد لله^(٢٨).

وهكذا ذهب ما أرادته تلك المرأة الجلييلة بسبب سوء تصرف المشرفين على وقفها، وعدم اتاحتها للقراء وجعلها في مكان أمين سهل ميسور لكل طالب علم.

وتبددت الكتب التي وقفها محمد رشيد باشا الشرواني الداغستاني المتوفى سنة ١٢٩١ عن طريق السرقة والبيع، ولا شك أن المشرفين على المدرسة التي كانت من وقفه، إضافة على من كان يشرف على المكتبة قد أهملوا أمرها فكان أن تجاسر عليها اللصوص فسرقوا ونهبوا^(٢٩).

وتعرضت مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بالمدينة المنورة في ظل إدارات متعاقبة سيئة متهاونة، للسرقة والنهب فكان أن فقدت جملة من نفايس مخطوطاتها من ذلك:

١ — مصحف مكتوب على رق نعام بخط أندلسي، مذهب في آخره، وهو بخط عبدالرحمن بن علي بن مرزوق بن محمد بن مكاسم البطليوس سنة ٤٨٨هـ — ٩٠٥م.

٢ — مسند أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، وهو الآن في مكتبة المتحف البريطاني..

٣ — أمر شريف باشا بنقل ستين كتاباً من المكتبة، وأن يذكر أمام أسماء هذه الكتب في القوائم إشارة (م) التي تعني أنه مفقود، وهذه المجموعة لا تزال محفوظة في استانبول.

٤ — كتاب في تاريخ المغرب يقع في عشرة مجلدات..

٥ — استطاع أحد الأشخاص من استنساخ مخطوط داخل المكتبة، ثم ختم منسوخه بخاتم المكتبة وسرق الأصل.

٦ — بيعت مجموعة كبيرة من المخطوطات في عهد بعض الأتباء الذين ضعفت نفوسهم عن القيام بواجب الأمانة^(٣٠).

وتدل المجموعات الكبيرة من المخطوطات التي تحمل نصوصاً وقفية والمحفوظة حالياً في مكاتب في أرجاء المعمورة خارج الأماكن التي وقفت عليها على عظم ما أصاب وقف الكتب من بلاء عبر القرون، ولا يزال سلب الكتب الوقفية والعبث بها جارياً حتى اليوم، إذ نجد ضمن ما يتاجر به من المخطوطات العربية في متاجر بيع الكتب النادرة في أوربا أو مع تجار المخطوطات في العالم

العربي وتركيا، مجموعات كبيرة هي من أوقاف الأسر أو الجوامع والمدارس في تركيا وبعض بلدان العالم العربي.

ولم يعد أمراً غريباً أن نجد في مكتبة تشيستريتي مخطوطاً نفيساً كان وقفاً في جامع صغير من جوامع القاهرة، أو أن نقف على نسخة فريدة من مخطوط في التاريخ بالمتحف البريطاني يحمل نصاً يدل على أنه كان وقفاً في تونس.

تلك أبرز ملامح مرحلة انقراض العقد التي شهدت تدهور بنية المكتبة العربية والاضرار بثقافة الفرد العربي من خلال تدمير متنفس مهم أقيم من أجله ليرتاده ويستقى منه علما وثقافة تؤهلانه للابداع والابتكار والتزود بما يزيده تحضرا ورقيا.

ب — مرحلة لم الشتات :

أما المرحلة الثانية فهي التي نستطيع أن نطلق عليها مرحلة لم الشتات، وهي مرحلة قريية العهد نبعت في أذهان أفراد هالهم ضياع الوقف الخاص بالكتب والمكتبات واستشراء العث والاهمال إلى بنية المتبقي من ثروة الماضي التي بددها الطمع والجشع والاهمال، فكان أن عملوا على لم شتات ما بقي من مخطوطات وقفت على مدارس أو جوامع متناثرة في مكتبات مركزية حديثة تحفظ فيها تلك المخطوطات بعد أن تعالج مما يكون قد أصابها من أمراض أو تلف، وتخزن في أماكن مناسبة ونهياً للاستخدام العام بما يعيد إليها روح الهدف الأصلي الذي وقفت من أجله، وهو تيسير العلم وتسهيل التحصيل لمن يرغب من طلاب المعرفة دون قيود تذكر.

ورغم أن الانسان قد يأسف لانتقال الآلاف من المخطوطات العربية، والتي تشكل الوقفية منها نسبة كبيرة إلى مكتبات في أوربا وأمريكا، إلا أن ما تحظى به من رعاية وعناية في الأماكن التي انتقلت إليها إضافة إلى تمكن الباحث من الوصول إليها من خلال الاطلاع عليها مباشرة أو الحصول على مصورات لها، يدفع إلى اعتبار ذلك من الأمور الحسنة التي ساعدت على بقاء مجموعة كبيرة من نفائس التراث العربي، وخلصها من عوامل التدمير والخراب التي سادت المنطقة بعد أن كساها ظلام الجهل في قرون متأخرة.